كتاب التأصيل

# البيت الكبير

وقصص أخرى

عبد الحميد إبراهيم

**جماعة التأصيل الأدبي والفكري**

رئيس مجلس الادارة
الدكتور عبد الحميد إبراهيم

# إبراهيم

## - ١ -

تمتد واجهة البيت طولا من الشرق إلي الغرب. وتمتد أضلاعها عرضا من الشمال إلى الجنوب

يراها القادم من أول الطريق ، ويظل يصاحبها كأنها الرفيق وحتى تسلمه إلى نهاية الطريق .

هي بيضاء لامعة تنعكس عليها أشعة الشمس صباحا فتشتعل وتنعكس عليها أنوار النجوم مساء فتتوهج ، وكأنها النار يوقدها العرب وسط الصحراء يهتدي بها الضالون ويستدفئ بحرارتها المقرورون ويتذوق عندها اللحم و المرق القرمون.

وسط هذه الواجهة تماما بدت صورة الكعبة سوداء لامعة يحيط بها البياض من كل جانب ، وتعلوها زرقة السماء فتتألق وكأنها سدرة المنتهي.

وتحت صورة الكعبة نقش بخط كوفي بارز وبلون ذهبي زاه العبارات الآتية:

**حج مبرور وذنب مغفور**

**مبروك الحجة السابعة**

**للحاج إبراهيم العلوي**

**١٩٤٨**

## - ٢ -

اسمي إسماعيل أقتنص هذه الذكريات التي عشتها في القرية منذ ثلاثين عاما.

وأبي هو الحاج إبراهيم أما أمي فهي سودانية وتزوجها أبي حينما كان مفتشاً في محطة السكة الحديد بأم درمان.

عاد أبي من السودان وترك زوجته بأم درمان و تفرق بقية إخوتي في الخرطوم وكسلا وحلايب وبلاد النوبة.

و لم يحمل أبي معه من السودان شيئا سواي وسوي هذا السيف الحاد الذي أهداه له المفتش الإنجليزي جزاء لشجاعته وأمانته، ولا تزال العائلة تحتفظ بهذا السيف في صندوق خشبي كبير يتوارثه الأحفاد عن الأجداد وكأنه التابوت فيه بقية مما ترك آل موسى و آل هارون.

## - ٣ -

لم أشعر بأن أمي من السودان ولا بأن لوني يختلف عن لون إخوتي ، فقد كانت الحاجة نفيسة هي أمي وكان أخوتي في صعيد مصر يحيطون بي ، يشدون أزري ويشاركونني في أمري ، أما أبناء العم فقد كانوا هم العزوة والسند.

وحدث يوم ما أن تأخرت في الحقل وخشي علي أخوتي من الذئب فاقتفوا أثري ، وجاءوا بنبابيتهم وفئوسهم وقتلوا يومها أربعة وأربعين ذئبا ، وعادوا بي يحملونني علي أكتافهم وقميصي الأبيض يرفرف فوق رءوسهم وكأنه راية السلام والبراءة .

هتف كبيرهم : —

إسماعيل...إسماعيل

وردد بقية أخوتي وراءه وفي نفس واحد:

-دمه من دمنا ...وقميصه من قميصنا

وسمع أبي هتافنا فاطمأن قلبه وتلألأت دموع الفرح في عينيه.

## - ٤ -

يقول أهل القرية : إن أبي قد جلب معه من السودان حجابا يحميه من الأذى ويصونه من طلقات الرصاص.

وحدث يوما أن تعرض والدي للنار يطلقها عليه قطاع الطرق ممن كان يضيق عليهم الخناق.

أحاطت به النار من كل جانب ولكنه خرج منها سالما سوي ندبة صغيرة اختلطت بزبيبة الصلاة.

## - ٥ -

أحببت والدي حبا شديدا ملك علي كل حواسي ، وأصبحت لا أقبل من أحد أن يدوس له علي طرف.

وفي يوم تطاول عليه واحد من الرعاع ، ودون أن أفهم الموضوع اندفعت نحوه كالثور الهائج وأوقعته علي الأرض ، وأقبل أولاد العم يهجمون عليه حتى كادوا بفتكون به.

ولكن والدي تقدم نحونا وكأنه أبو زيد الهلالي وأخذ يزودنـــــا عنه و يهشنا بعصاه ، ويخلص الرجل من أيدينا و لم يتركه إلا بعـــــد أن أزال عنه التراب ، وداوي جرحه وطيب خاطره.

يومها أصبت بشجة من عصاه لا تزال آثارها بادية علي جبهتي وكان يذكرني بها بين الحين والحين و يقول لي مازحا:

-هكذا يضرب العجل.

## -٦-

كان الحاج إبراهيم محبا للسلام لم يلوح بعصاه علي غريـــب ، فقط كان يرفعــــها أمـــام وجوهنـــا حـــين نندفـــع مـــع غضبتنـــا ولا ينـــزلها إلا يعد أن نعود إلي هدوئنا ، وقد تركت عصاه علي جبهـــة كل واحد من أبناء العم شجة .

تحولت هذه الشجة إلي بركة ، و أصبحنا العائلة الوحيــــدة في القرية لا علينا دم ولا لنا دم كانت بقية العائلات يقاتل بعضها بعضـــا ويثأر بعضها من بعض ، أما عائلتنا فقد خرجت من هذه الزوبعـــة ، لا

علينا ولا لينا ، فنمنا قريري العين وتجولنا في البلدان دون أن نخشى من مطارد أو مغتال.

كان رحمه الله محبا للسلام وكان أهل القرية يسمونه "أبو خليل"ولم أعرف معني هذا اللقب إلا بعد أن كبرت وتلوت قول الله تعالى {واتخذ الله إبراهيم خليلا} .

## – ٧ –

أول ما أذكره عن والدي هو ما يسميه أهل القرية بيوم الحكمدار.

جاء هذا الحكمدار إلى القرية ، وكان أحمر الوجه كأنه الديك الرومي ، يتبختر فى مشيته وخلفه العساكر والضباط ، تلمع على أكتافه النياشين ، كأنها عيون الشياطين .

وقف أمام الحاج إبراهيم ، وأغلظ له القول أمام أهل بلده ، وبأنه لا يستطيع أن يقيم الأمن فى القرية ، وسيفصله عن العمودية ، ويصبح بلا سند و لا جاه .

نسى الحاج إبراهيم كل سند وجاه ، ونسى العساكر والسـلاح ، ووقف فى وجه الحكمدار وقفة خليل الرحمن أمام النيروز ، ولوح بيده وزعق :

" غور فى داهية ما تطرح ما تحط راسك حط رجليك" .

ولا تزال القرية حتى الآن تتحدث عن يوم الحكمدار ، وكأنـــه ألف يوم و يوم .

## – ٨ –

كان البيت الكبير يقوم على قواعد وأركان ، وكان دائماً عامراً بالخلق ، طوافون بعضهم على بعض ، ويسعون منذ الصباح نحو البيت ، ليقضى بينهم الحاج إبراهيم ، فقد كان عمدة القرية .

كان مقام إبراهيم فى المنطقة الوسطى ، تحت صورة الكعبة تماماً ، وكان يقضى بين الناس بكلمة واحدة هى كلمة "عيب" ، التى تفعـــل فى النفوس ما لا تفعله القوانين والنصوص .

تأتيه إحداهن تشكو زوجها ، فيقول لها " عيـــــب" فتطـــأطئ رأسها خجلى ، وتعود راضية .

ويأتيه أحدهم يشكو جاره ، فيقول له "عيب"! فيخجل من نفسه ، ويعود ليسترضى جاره .

كان الناس فى ذلك العهد يحسون بالحياء ، وينفرون من العيب ويخجلون من الصغائر ، فكان أن حلت البركة فى قريتنا ، وهبط الحب على قلوب الناس ، واختفت الجريمة والسرقات ، ورزقهم الله من الطيبات ما أفاضوا به على غيرهم من القرى المجاورة ، حتى لقب الناس قريتنا بأنها أم القرى.

## — ٩ —

أصبت بكل الأمراض المستوطنة فى قريتنا ، ومرضت بالبلهارسيا والأنكلستوما والملاريا .

وقد أشرفت على الموت فى وباء الكوليرا الأخير ، ووجهني الأهل نحو المشرق ، وأخذوا يلقنوننى الشهادتين ، حتى ألاقى ربى مسلماً حنيفاً .

كان والدى يحبنى كثيراً ، ويجلس بجانبى ، ويضع يده على رأسى ، يردد أدعيته ، ويتلو علىّ ما يواتيه من القرآن الكريم :

{ الذى خلقنى فهو يهدين . والذى هو يطعمنى ويسقين . وإذا مرضت فهو يشفين . والذى يميتنى ثم يحيين } .

وكان أن استجاب الله دعاءه ، وخرجت من هذه المحنة الأخيرة سليماً معافى .

سر والدى كثيراً ، وأقسم أمام أهل قريته ، ليفدينى بكبش سمين ، ينحره كل عام ، ويوزع لحمه على الفقراء والمساكين .

## - ١٠ -

نذرنى والدى منذ نجاتى من الموت للأزهر الشريف ، و أوصانى بمذهب مالك ، حتى يعرفون الحلال من الحرام ، فقد كان أهل قريتى جميعهم على مذهب الإمام مالك .

كنت الوحيد بين أخوتى من يتجه نحو الأزهر ، ويترك المدارس الأميرية ، التى يرطنون فيها باللغة الإنجليزية ، ويلبسون الطرابيش التركية.

قرأت بعد ذلك فى كتاب الأغانى ، أن الإمـــام مـــالك أراد فى صباه أن يحترف مهنة الغناء ، التى كانت شائعة فى المدينة على عـــهده ، ولكن أمه هى التى أغرته بالفقه .

يوم أن قرأت هذا أقبلت على الفقه ، وانصرفت عـــن البـــدع الجديدة ، التى أخذت فى هذه الأيام تنتشر فى قريتنا .

## - ١١ -

كانت تمشى بين الحقول كأنها زهرة الفول ، تفح رائحة نفـــاذة تختلط برائحة الأزهار والنوار ، وتتسرب حتى النخاع .

هى جارتنا مارية القبطية ، حييتها فحيتنى ، وابتســـمت لهـــا فابتسمت لى ، وأغرتنى بقبلة ، فقلت لها : الحاج إبراهيم يقول إنها حرام ، ولكنى أستطيع أن أفاتحه فى أمر زواجى منك ، وأن نعلن ذلك أمـــام الأشهاد .

عند ذلك أطرقت رأسها على استحياء ، وتـــورد خداهـــا ، وتمتمت بكلام لم أفهم منه إلا كلمة "الحاج إبراهيـــم" قالتـــها بحـــب وتقدير.

عدت إلى والدى ، وأخبرته بالقصة ، فربت على كتفى بحنان وقال "ثبت عتبتك" وبلغ بى الفرح منتهاه .

## - ١٢ -

كان الحاج إبراهيم أمياً ، لم يقرأ التاريخ ، ولكنه فى الفترة الأخيرة من حياته ، كان يلقى إلىّ بأخبار تاريخية ، لم أقرأها فى كتب التاريخ المدونة ، و لم يقرأها أحد غيرى من المتعلمين ، وإن كنت لم أنكرها عليه ، فقد قرأت مثيلات لها ، وإن اختلفت الأزمنة والأمكنة ، وسير الأحداث وأسماء الأعلام .

حدثنى مرة أن الخضر عليه السلام ، أتى إلى هذه القرية ، وأقام مملكة سعيدة ، كل شيء يقضى فيها بالصلاة على النبى ، فلو ذهبت إلى السوق ، وأردت حاجة ، يكفيك أن تصلى على النبى ، تجد حاجتك لك مقضية .

و لم أنكر عليه ذلك ، فقد قرأت فى تفسير الطبرى لسورة الكهف ، أن ذا القرنين مر على أهل قرية ، يحكمون بالعدل والسوية ، ليس بينهم جائع و لا فقير ، ولا أمير ولا حقير .

وحدثنى ثانية أن أحمد عرابى أتى إلى هذه الناحية ، ووقف وقفة قوية أمام الحكمدار ، الذى أراد أن يهين المسلمين .

كان يحدثنى عن وقفة عرابى بحماسة شديدة ، حتى خيل لى أننى أرى وجه عرابى فى وجهه ، وأن يوم الحكمدار الذى تحدث عنه القرية حتى الآن ، هو نفسه يوم أن وقف عرابى فى ساحة عابدين ، يقول للخديوى " متى استعبدتم الناس وقد ولدهم أمهاتهم أحراراً " .

وحدثنى ثالثة أنه ذهب إلى مكة ، والتقى أمام الكعبة بأبو زيد الهلالى ، و أنه أهداه سيفه البتار بعد أن غمسه فى ماء زمزم المبارك ، وحين عاد إلى القرية ، طوح بعيداً بسيف المفتش الإنجليزى ، ووضع مكانه سيف أبو زيد الهلالى .

و لم أنكر عليه ذلك ، فقد رأيت فى صندوق العائلة الخشبى ، صورة أبو زيد الهلالى منقوشة على السيف ، وعلى الخد شامة ، وفوق الزند علامة .

وحدثنى رابعة أنه التقى فى صحراء المغرب بخضرة الشريفة ، كانت تلبس ثياب فارس ، تقاتل الكفرة فتقتلهم ، وكاد أن يفتك بها رجل أخذها على غرة ، وجاءها من الخلف ، يروى الحاج إبراهيم فيقول :

" ولكنى تصديت لهذا الرجل ، وألقمته رمحاً قسمه نصفين ، فتزوجتنى حضرة الشريفة ، وكان مهرها شجاعتى و أمانتى ، وأنجبت منها أبو زيد الهلالى الذى حكم المغرب ، وأقام دولة ؛ لا يعرى فيها فقير ، ولا يجوع مسكين" .

و لم أنكر عليه ذلك أيضاً ، فقد قرأت أن الأميرة ذات الهمة ، كانت تلبس ثياب فارس ، وتبارز الرجال وتهزمهم ، وأقسمت ألا تتزوج إلا من رجل يصارعها فيصرعها .

## - ١٣ -

وبلغ الحاج إبراهيم من الكبر عتياً ، وأصيب بالعمى ، وكان يتحسس طريقه بعصاه ، تلك التى كان يهشنا بها ، حتى لا نندفع مع غضبة الشيطان .

وفى يوم تحسس الجدار ، ورأى شرخاً صغيراً ، كنا نمر عليه كل يوم ، ولا تراه عيوننا .

يومها جاءنى يسعى ، و لم يلتقط أنفاسه ، إلا بعد أن لمس قميصى وقال : ــ " غداً احمل رفيقتك وارحل ، فقد حانت الساعة " .

ويأتى الغد ، ليشهد على رجل ، يحزم حوائجه ، ويعد راحلته ، ويردف حليلته ، ويولى وجهه شطر المسجد الأقصى فى بيت المقدس .

# إسماعيل

## -١-

حال لون الجدار ، واتسع الشرخ ، وأحاطت به الشقوق من كل جانب ، وملأته العناكب ، واختفت صورة الكعبة ، وضاعت الكتابة الذهبية ، ومات الحاج إبراهيم .

أصبحت القواعد و الأركان خالية ؛ إلا من بعض الماعز والحمير تجوس خلالها نهاراً ، ومن الخفافيش تصارع الظلام ليلاً .

أما الناس من أهل البيت ، فقد كانوا يجلسون القرفصاء كأنهم التماثيل ، ويستندون إلى الجدران منكسى الرءوس كمن يبحث عن شيء ضاع وسط التراب .

**— ٢ —**

أما أنا فاسمى أحمد بن إسماعيل بن إبراهيم العلوى ، والدى من صعيد مصر ، هو الدكتور إسماعيل ، تعلم فى الأزهر الشريف ، وتخصص فى دراسة تاريخ العرب قبل الإسلام ، أما أمى فهى مارية القبطية .

نزحنا إلى بيت المقدس ، بعد أن ظهر الشرخ فى البيت الكبير .

**— ٣ —**

لم أر الشرخ ، ولا البيت الكبير ، ولكن والدى كان دائم الحديث عنه .

كنت أظن أن والدى يبالغ كثيراً ، وهو يربط الشرخ فى البيت الكبير بانهيار سد مأرب ، ولكن بعد أن قرأت فى كتب التاريخ أن فأراً صغيراً كان هو المسئول عن انهيار سد مأرب ، قلت لنفسى : —

" معظم النار من مستصغر الشرر ، ومن يدرى لعل هذا الشرخ الصغير فى واجهة البيت الكبير ، فى أقصى الصعيد بمصر ، هو المسئول

عن ذلك الشرخ الذى بدأ يظهر هنا فى بيت المقدس ، علـــى جـــدار المسجد الأقصى" .

**- ٤ -**

ولم أر أعمامى أيضاً فى صعيد مصر ، ولكننى كنت أعايشـــهم أكثر مما أعايش الناس هنا فى بيت المقـــدس ، وأحـــس بمشـــكلاتهم ، واستشعر حتى أنفاسهم ، وذلك خلال الخطابات التى تصلنا منهم بـــلا انقطاع ، وخلال ذكريات أبى ، وهو يقص علينا تاريخ القرية ، حـتى لا ننساها ، وننسى الأعمام والأخوال .

**- ٥ -**

وعمتى حياة هى أحبهم لى ، فقد كانت تراسلنا باســـتمرار ، وتسأل عن أحوالنا ، وعن دراستى ، وتداعبنى بأنها تعد لى عروساً مـــن أهل القرية ، تفوق أمى جمالاً وبياضاً .

وفى يوم لا أنساه ، جاءنا خطاب من العمة حياة ، تقول فيه :

" حضـــــــرة المحـــــــترم الدكتـــــــور إسمـــــــــاعيل

حفظه الله

بعد السلام عليكم ورحمة الله بركاته

يكون فى علمكم أن الشرخ زاد فى الجدار ، والواجهة تتمـــايل كلما هبت الريح ، والبيت الكبير على وشك السقوط ، يـــا تلحقـــوه ياماتلحقهوش.

عيب عليكم أنتم الرجالة ، تسيبوا بيت أبيكم يوقع ، دافضيحـة وجرسة ، بيت الحاج إبراهيم يوقع ، اللى رباكم وعلمكم ، وبركتـــه معاكم فى غربتكم ، والعارف لا يعرف .

سلامى لابننا أحمد ألف مليون سلام ، ولازم يجى يزور عمتـــه ويشوف عروسته ، ويزور بلده و بلد جدوده ؛ والسلام ختام .

أختك

حياة "

**- ٦ -**

أثر هذا الخطاب على والدى كثيراً ، وتغـــيرت ســـحنته ، و لم يحادثنا بشيء ، وفى الصباح رأيناه يجمع كل ما ادخره من أموال ، يـــرد

بها عاديات الزمان ، ويعد راحلته ويحزم حوائجه ، ويوصي بمارية القبطية ، ويرحل نحو الصعيد .

## – ٧ –

أقام أبي هناك شهراً ،لاحس ولا خبر .

وفي صبيحة يوم ، عاد إلينا غضبان أسفاً ، وبعد أن ألقى أمتعته صاح في وجه مارية القبطية : –

" لا فائدة ! اتسع الخرق على الراقع ، الأهل والأقارب يتطاحنون ، انفلت منهم العيار ، لا كبير لهم بعد الحاج إبراهيم ، كل منهم كان يفكر في المال الذى حملته معى ، وكل منهم يريده لنفسه ، لم يعد يهمهم البيت الكبير ، ولم يعودوا يرون الشرخ ، الذى تطاول حتى كاد أن يصل إلى القواعد والأركان " .

أجابته مارية في هدوء وسكينة :

" إن الراعى الصالح يحوط على الخراف الضالة ، هو يرى الذئب يتربص بعيداً ، وهم لا يرون شيئاً" .

ولما سكت عن والدى الغضب ، أخذ يقول لمارية :

"ليتك كنت هناك يا مارية ، فقد تستطيعين بحنانك أن تستلي من قلوبهم الأضغان والأحقاد" .

ثم وجه كلامه إلىّ ، ولكن فى صوت بدا لى عميقاً ، يأتينى من كل اتجاه

" قد تستطيع يا أحمد ما لم يستطعه أبوك ، فأنت تحمل داخلك حماسة أبيك ، وحنان أمك ، فليحفظك الرحمن ، ويحطك بعنايته. "

## – ٨ –

طر شاربى ، واجتاحتنى عاطفة ، لو وزعت على كل نساء العالم لوسعتهن ، ولكننى أحتفظ بها من أجل واحدة فقط ، تهجس داخلى ، ولا أتبين من هى .

## – ٩ –

راشيل هذه الفتاة اليهودية أحتقرها ، جمالها من النوع الوقح ، ونظراتها دون حياء .

هى تلبس قبعة أمريكية ، فتبدو كالعم سام ، ودائماً يحيط بها جنود أمريكان ، يتجرعون البيرة ، ويتجشأون فى وجوهنا ، ويتقيئون فوق الأراضى المقدسة ، وينجسون الأماكن الطاهرة .

تغرينى بجمالها فأنفر ، وتطلب منى الهدايا ، فألقى لها ببعض المال تتلقفه مسرورة ، وتنصرف ضاحكة .

أغرتنى مرة بقبلة فقلت : إن الدكتور إسماعيل يقول : إن الحاج إبراهيم يقول : إنها حرام .

استضحكت وقالت : أبوك دقة قديمة .

ثم ولت وهى ترتج كأنها قنبلة .

## - ١٠ -

عام الحزن كان هو عام ١٩٦٧م.

ضاعت فيه القدس ، وتسلل المرابون إلى المسجد الأقصى ، حتى وصلوا إلى المحراب ، واتسع الشرخ فى الجدار ، وجاءت رسالة من العمة حياة بأن واجهة البيت الكبير تتمايل مع كل نسمة هواء ، وبأن الأخ الأصغر قد استشهد على أرض سيناء .

أصيب أبي الدكتور إسماعيل بحالة من الحزن ، لم ينفع فيها وعظ الأم مارية وامتنع عن الطعام إلا من رشفة ماء أو كسرة خبز ، ورانت عليه كآبة ، وأسلمنا أمرنا إلى الله .

وفى يوم طلع علينا الأب منتعشاً نشطاً على غير العادة ، وقص علينا رؤيا أعادت عليه الحياة ، فقد رأى فيما يرى النائم كأن غرباناً ، بمناقير من صلب وعيون من خرز ، أخذت تنهش فى الصخرة المقدسة ، ولكن كلما وقعت حبة رمل ، تحولت إلى حجر كبير فى جدار الصخرة ، وأخذت الصخرة تتعالى وتطاول السماء ، حتى سدت الطريق أمام الغربان ، حينئذ ارتاعت الغربان ، وصعقت ، ولاذت بالفرار .

ارتاح الأب بعد هذه الرؤيا ، وعادت إليه البشاشة ، وأزمع من ساعتها أن يؤلف كتاباً تحت عنوان "الاسم الأعظم" .

## - ١١ -

أقبل الدكتور إسماعيل على هذا الكتاب ، و أوقف نفسه عليه ، وكأن أنفاسه قد ارتبطت به ، حتى أتمه فى ثلاثين جزءاً ، نستسمح القارئ فى أن نقتطف شذرات من المقدمة ، وشذرات من الخاتمة .

# المقدمة

اقتحم إبراهيم عليه السلام النار ، وهو يردد الاسم الأعظم ، فكانت برداً وسلاماً .

وأسلم إسماعيل عليه السلام نفسه للسكين ، وهو يردد الاسم الأعظم ففداه الله بذبح عظيم .

وابيضت عينا يعقوب عليه السلام من الحزن ، وكظم همه ، واستسلم للاسم الأعظم ، فجاءه البشير ، وارتد بصيراً .

وتاه موسى عليه السلام هو وقومه فى صحراء سيناء ، وردد الاسم الأعظم فأنزل الله عليهم المن والسلوى .

وأقبل عيسى عليه السلام على صليبه ، وهو يردد الاسم الأعظم فرفعه الله إليه .

فإذا سألتنى يا بنى بعد هذا عن الاسم الأعظم ، لأجبتك بلا تردد : هو الله الواحد الأحد .

## - ١٣ -

## الخاتمة

وعم الظلام الجزيرة العربية .

وعوت الذئاب ، وظهرت الشياطين .

وانمحت البركة ، وحلت اللعنة .

الأخ يقتل أخاه .

والأب يدفن ابنته .

ومن أجل ناقة البسوس تدور الحرب أربعين سنة .

ومن أجل قطرة ماء ، أو عود من كلأ ، تتناثر الدماء على الرمال ، ويصطبغ الأفق بحمرة قانية .

نسى أهل الجزيرة الاسم الأعظم فنسيهم ، واحتجب بعيداً عنهم وراء السحب والغيوم .

واعتزل أهل التوحيد ديارهم ، وأغلقوا أبوابهم ، يتحنفون ، ويتعبدون ، وينتظرون الفرج .

غابت الكلمة الحق ، فظهر السماسرة وتجار الكلمة ، يسجعون ويغمغمون ، ويلبسون الحق بالباطل .

وتلصصت الشياطين على السر الأعظم ، وحرفوا الكلام من بعد مواضعه .

وغضبت السموات ، وأرسلت عليهم شهاباً رصداً .

واستجاب الله دعاء أهل الحنفية .

وبعث السر الأعظم بصيصاً من ضياء ، يبشر بالمخلص الموعود.

# أحمد

## – ١ –

جاءه جده الحاج إبراهيم فى المنام ، يأمره بالعودة إلى القريـــة ، وبأن يحفر تحت الجدار الشرقى من البيت الكبير سبعة أقدام ، فســـوف يجد الكنز المرصود .

## – ٢ –

عاد أحمد إلى القرية بلا إبطاء ، وهناك وجد أبناء العم كلـــهم عادوا إلى القرية ، من ليبيا والعراق والسودان والحجاز ، أتـــاهم الجـــد الكبير فى المنام وقص عليهم قصة الكنز المرصود ، وأمرهم بالعودة .

## – ٣ –

سأل أول ما سأل عن العمة حياة ، لم يكن قد رآها من قبـــل ، وما إن وقع نظره عليها ، حتى أحس كأنه قد رآها منذ سنين طويلة .

كانت شديدة الشبه بوالده ، نفس القامة المرفوعة ، والنظـــرة المتطلعة ، والرجل الممتدة خطوة نحو الأمام .

## – ٤ –

لم يضع الجميع وقتاً ، بدءوا يحفرون فى المكان الذى حدده الجد ، أخذوا يعملون ويغنون ، كلهم يحفظ الأغنيات ، فقد ألقاها إليهم الجد فى المنام ، ورددها عليهم وهو يلوح بعصاه وكأنه " المايسترو".

يبدأ أحدهم المقطع ، ويردد الباقون وراءه فى نفس واحد " هيلا هيلا هيلا هوب " .

وتتردد الأصوات فى أركان البيت الكبير ، كأنه التلبية تـتردد فى أرجاء المسجد الحرام .

## – ٥ –

شد حيـــــــلك          ومد طـــــــــولك
بكرة تروح الســوق          تــاكل لحــــمه وبرقوق

هيلا هيلا هيلا هوب

هيلا هيلا هيلا هوب

---

و التعلب فات فـــات وفى عينه سبع شطـــــات
و الديب فات فـــات وفى عينه سبع عضـــــات
هيلا هيلا هيلا هوب
هيلا هيلا هيلا هوب

---

والدبة وقعت فى البـــــير وصاحبها واحد خـــتزير
والختزير وقع فى الزيــــــر و عليه فتلة و جـــنـــزير
هيلا هيلا هيلا هوب
هيلا هيلا هيلا هوب

---

والسوسة كلتها الدودة والدودة كلها الفـــــــار
والفار وقع فى النـــــار و احنا اللى بنينا الـــــدار
هيلا هيلا هيلا هوب
هيلا هيلا هيلا هوب

## – ٦ –

وقبيل الفجر رنت الفـــأس ، وظـــهرت الجـــرة المرصـــودة ، استخرجوها ، وأزالوا عنها الأتربة والغبار .

كانت مختومة بخاتم الحاج إبراهيم ، فضوا المغاليق ، ثم نثروهـــا ، فسالت الدنانير تحت أقدامهم ، وكأنها مياه زمزم تسيل تحـــت قدمـــى الذبيح .

## – ٧ –

لم يقرأ فى عين واحد من أبناء العم الطمع ، بل صاح الجميع فى نفس واحد ، وفى جملة واحدة لا تتغير حروفها ، وكأنهم قد لقنوها منذ الصغر :

حنبنى الـــــــــــدار     ونمحو العــــــــــــار

وبدأ الجميع يعملون دون كلل ، بدءوا بالواجهة ، وأصلحـــوا الشرخ ، وأزالوا العناكب والأتربة ، وظهر أول ما ظهر صورة الكعبـة ، مكتوباً تحتها :

**حج مبرور وذنب مغفور**

**مبروك الحجة السابعة**

**للحاج إبراهيم العلوى**

**١٩٤٨**

بدا الخط جديداً ، واللون زاهياً ، والكتابة مرتعشة ، وكـــأن صاحبها قد فرغ منها فى التو .

وبحركة لا إرادية ، تقدم أحمد ، واستخرج من صرتـــه قلمـــاً ديوانياً ، لم نره معه إلا الساعة ، وخط الآتى :

**جدده أحفاد الحاج إبراهيم**

**لمناسبة مرور خمسين عاماً**

**على حجة جدهم السابعة**

**١٩٩٨**

كان خط أحمد مماثلا للخط المكتوب فوقه ، وكأن روح الفنان الأول هى التى تقمصته ، ودفعته لأن يكتب نفس الخط، ونفس التعرجات ، ونفس الألفات المرتفعة ، ونفس التيجان ، حتى اللون الذهبى كان هو تماماً ، وكأن مرور خمسين عاماً لم تغير من الأمر شيئاً .

## - ٩ -

جلس الجميع يلتقطون الأنفاس ، ويتدبرون الأمر ، ولكن أحمد فى حركة لا إرادية ينفلت من بينهم ، وكأن روحاً قد مسته ، ويتجه نحو الشرق ويصيح فى صوت كأنه الآذان ، يردده ألف مسجد ومسجد:ــ

ــ أبتاه ! بنينا الدار ، ومحونا العار .

وفى تلك اللحظة تماماً ينهض إسماعيل من فراشه نشيطاً ، وكأنه فتى فى العشرين ، ويصيح : ــ

ــ مارية ! جاءت البشرى .

وفى تلك اللحظة نفسها ، تدخل مارية عليه الحجرة وهى نشطة ، كأنها فتاة فى العشرين ! وهى تصيح : ــ

ــ إسماعيل ! جاءت البشرى .

يقول إسماعيل لمارية : ـــ

ـــ سمعت أحمد يصيح : بنينا الدار ، ومحونا العار .

وتقول مارية لإسماعيل ، وهى تكمل كلامه : ـــ

ـــ ورأيت فى اللحظة نفسها الشرخ ، وقد زال عـــن جـــدار المسجد الأقصى .

عندئذ تعانقاً كثيراً ، واغتسلا كما لم يغتسلا منذ سنين طويلة .

## – ١٠ –

وبعد شهر من اغتسالهما ، أقبلت امرأته فى صـــرة ، فصكـــت وجهها وقالت : ـــ

ـــ أألد وأنا عجوز ، وهذا بعلى شيخا ، إن هذا لشيء عجيب.

قال لها ، وهو يكمل تلاوتها : ـــ

ـــ أتعجبين من أمر الله ، رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت ، إنه حميد مجيد ، وأضاف بعد إطراقة قصيرة : ـــ

ـــ سأسميه عبد القدوس .

أجابته وهى ترنو عبر النافذة ، نحو الصخرة المقدسة : ـــ

ـــ عاشت الأسامى ، اليوم يزول الشرخ ، وغداً يعود القدس .

## مريم

جميلة كأيقونة ، بيضاء كأنها حق عاج ، وديعة كأنفاس الملائكة ، تكالب عليها ذئاب القرية ، وكل أرادها لنفسه ، فأبت .

وأثاروا حولها الأقاويل ، فانتبذت مكاناً قصياً ، لا تكلم أحداً ، ولا يكلمها أحد .

رآها أحمد وهى فى صومعتها ، فكأنه قد رآها منذ سنين طويلة ، هذه النظرة الحانية لم يخطئها ، لقد لاحظها من قبل فى عين الأم مارية ، وهى تسرى عن أبيه ليلة أن عاد غضبان آسفاً ، وألقى بأمتعته فى وجه أهل البيت .

تفجرت داخل أحمد عواطف حبيسة ، كان قد احتفظ بها فى نفسه منذ أن كان فى بيت المقدس .

ورأته ، فتمثل لها بشراً سوياً ، تنتظره منذ سنين طويلة .

وبلا تردد قالت له :

— زوجتك نفسى .

فأجابها :

ـــ قبلت ورضيت .

وبين دقات الكنيسة ، وصلوات المؤذنين ، أقبل أهـــل القريـــة يهنئون ويغنون .

وأصرت العمة حياة ، على أن تطلق على مولودهما الأول اســـم إبراهيم .

# ليلة الإسراء

رأيتنى فيما يرى النائم ، كأننى أتسلل إلى أركان البيت القـديم ، وألملم ما تبقى من حصوات ، كنت أنتقى الحصوة الدقيقـة الحـادة ، وأضعها فى صرة كبيرة حتى امتلأت، أدرت الصـرة فـوق ظـهرى ، وقبضت عليها بكلتا يدى ، وكأننى " بابا نويل" يحمل هدايا عيد الميلاد.

ورأيتنى ، وقد أخذت تنمو لى أجنحة ، مثنى وثلاث وربـاع ، وبدأ وزنى يخف ، وبدأت أرتفع نحو السماء ، وأخذت أسـرى نحـو المسجد الأقصى.

وهناك وجدتهم فى انتظارى ، أطفال الحجارة ، صافحتهم ، فأنا أعرفهم واحداً واحداً ، فقد كانوا رفاقى فى دروب القدس .

أخذت أفك الصرة ، وأوزع عليهم هدايا عيد الميلاد ، التقـم كل منهم حجره ، وتحول إلى طائر أبيض اللون بعيون آدمية .

تحركت الطيور أبابيل ، وأخذت تقذف المرابين الذين تجمعوا حول بيت المقدس ، كان الحجر مدبباً مشرشراً ، وفى حجم عدسة صغيرة ، يترل على الواحد منهم ، فيخترقه من رأسه إلى دبره ، ويجعله كعصف مأكول .

نظرت فوجدت بين الجثث قبعة راشيل ، وقد تخرمت وصلوت كالمشن البالى .

عادت الطير جميعها إلى صحن المسجد ، وتحولت إلى هيئاتها الأولى ، ثم اصطفت لتؤدى صلاة الشكر .

# الصفحة المطوية

استيقظت من نومى نشيطاً سعيداً ، واتجهت نحــــو صنـــدوق العائلة.

كان الصندوق من خشب السنط ، قديماً وضخماً كأنه التابوت ، وموضوعاً فى منتصف حجرة مكشوفة ، لا يحول بينه وبين الســـــماء حاجز .

كانت العائلة تحرص على هذا الصندوق ، وتسميه " صنـــدوق السيف والكتاب" فقد كان فى داخله سيف الحاج إبراهيم ، جنبـــــاً إلى جنب مع كتاب الدكتور إسماعيل .

تاقت نفسى لأن أقرأ فى كتاب أبى ، استخرجته من الصندوق ، واكتشفت فى آخره صفحة مطوية ، لم أقرأها من قبل .

فضضتها ، كانت مكتوبة فى الـــتو ، وبخـــط نبـــطـــــــى ، وكان عنوانها:ـــ

**هامش**

**الكسيح الذى طار**

# هامش

## الكسيح الذى طار

اخترقت مآذن المسجد الحرام أشـــعة الشـــمس المســـتقيمة ، ورفرفت أسراب من حمام الحمى حول المآذن ، بدت تحت أشعة الشمس بيضاء ، كما لو كانت لم تعرف السواد من قبل .

ورآه يطوف فى الدائرة حول الكعبة ، كان يعرفه تمامـــاً ، ولا يمكن أن يجهله ، إنه أبوه الذى قد مات منذ سنوات .

كان يعرف أنه قد أصيب بشلل فى أخريات حياته ، وأصبـــح كسيحاً لا يستطيع السير ، أما الآن فهو يراه شاباً فى جمـــال يوســـف الصديق ، يهرول مع الطائفين ولا يتوقف .

تتبع أثره ، وجد فى السير عسى أن يلحق به ، ولكنـــه كـــان يسرع ولا يهدأ ، يتم الشوط بعد الشوط ، حـــتى تحـــول إلى روح ، وانضم إلى صفوف الملائكة ، التى تشكل عموداً ، يمتد فـــوق الكعبـــة وحتى السماء الدنيا .

واستمر يسير فى الدائرة يتتبع أثر أبيه ، وحانت منه التفاتة ، فرأى ابنه يسير خلفه يجد فى أثره ، ورأى حفيده الذى لما يأت بعد ، وعرفه مع أنه لم يره من قبل .

واستمرت المسيرة ، والدائرة تتحرك ، ترتفع الأرواح نحو عمود السماء لتحل محلها أرواح أخر ، فى حركة سرمدية لاتهدأ ولا تنتهى .

قال لها : ـــ

ـــ إننى أجد رائحة إبراهيم وإسماعيل وجدى وأبى ، وكل من سار فى تلك الدائرة ، وإننى أصغى إلى أصواتهم ، وأتلو أدعيتهم ، إنهم أحياء عند ربهم يرزقون

وقال لها : ـــ

ـــ إن هؤلاء الذين يتحركون حول الكعبة ، ويتعلقون بأستارها ، ويقبلون الحجر الأسود ، وهم يعرفون أنه لا يضر ولا ينفع ، هم يريدون أن يخترقوا الحجب ، ويتنسموا ريح إبراهيم وإسماعيل ، وينضموا إلى هذا الصف الطويل الممتد فوق الكعبة وحتى أجواز السماء .

وأخذ يقول ويقول ، حتى جاءته الجلالة ، وارفض عرقاً .

ونظر أمامه فلم يجدها ، ووجد مكانها أمه ، كانت شابة انفلتت كغزالة تطوف مع الطائفين .

وفى لمحة واحدة كلمح البصر ، شاهد وراء أمه ابنته وحفيدتـــه وسائر نسله ممن سيتعاقبون .

كان الجميع يبدو فى هيئة شابة كحور العين ، منهم من يصاعد نحو عمود الملائكة ، الممتد فوق الكعبة وحتى السماء الدنيا .

ومنهم من ينتظر .

وأتاه صوت من بعيد ، وكأنه هاتف من السماء : ــ

ــ هذا مقام تضيع فيه الاعتبارات البشرية ، وتختفى القوانـــين المادية ، هذا مقام يطير فيه الكسيح ، ويحيا الموتـــى ، ويـــبرأ الأكمـــه والأبرص .

عند ذلك ازداد إيماناً بأن إبراهيم لم تمسسه النار ، وبأن إسماعيل فداه ربه بكبش من الجنة ، وبأن عيسى نزلت عليه مائدة من الســـماء ، وبأن محمداً قد اخترق الفضاء ليلة الإسراء .

اللّه

# الله

التاريخ لا يعيد نفسه ، وإلا أصبح نسخة واحدة ، إنسان الغاب كإنسان اليوم .

والتاريخ لا يتطور تلقائياً ، وإلا أصبح مثلما قال هيجل ؛ روحاً كبيراً يحرك البشر كأنهم آلات ميكانيكية .

التاريخ قد ينتكس إلى الوراء .

وقد يصيب القوم مثلما أصاب قوم عاد .

قالت له : أراك تفقد طبيعتك ، وتصبح متشائماً .

قال لها : ليس الأمر كما تظنين ، فالتاريخ إذا كان لا يتطور تلقائياً ، فإنه يتطور بتدخل الإنسان ، وإرادة الله لا تساند الضعفاء ، الذين يعتمدون على الروح الكبير .

كانت ملكة النحل مسترخية ، وحولها الشغالة يرصون بيضها بلا توقف ، وتقدم طفل صغير يختلس رحيقها ، دون أن يبالى بجماعات النحل التى تئز حوله ، فقد علمه أبوه كيف يتقى شرها .

قالت له : إنك تقلقنى .

قال لها : بل أضعك أمام مسئوليتك ، والمسئولية قلق ، ولكنـها قدر الإنسان منذ الأزل وخلاصه ، خرج أبوه من الجنة وكان لا يعـرى فيها ولا يضحى ، وتحمل قدره ، وأعطى الأشياء أسماءها ، وعمر الكون ، وأصبح خليفة الله فى أرضه .

قالت له : زدنى .

قال : أزيدك آيات من القرآن ، تغنيك عن هيجـــل ووجـع الدماغ ، وأخذ يتلو عليها من سورة الأحزاب : ـــ

{ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فـأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، وحملها الإنسان } .

قالت له : إنى أرتعد ، فأنا لست أقوى من الجبال .

قال : لا تخافى ، معك عناية الله .

قالت : أعدت إلى هيجل من جديد .

قال : كلا ، هناك فرق بين روح كبير يعمل كما يعمل النحـل ، وبين عناية تخلق كل شيء بقدر .

وأضاف : لقد اختص الله الإنسان بالمسئولية ، لأنـــه أقـوى المخلوقات ، حتى لو كانت هذه المخلوقات هـــى السـموات والأرض والجبال ، المسئولية هى أمانة وتكريم وتشريف .

قالت : أحس الآن أنني أقوى مما كنت ألف مرة ، معي عنايـــة الله ، وبها أغزو السموات والأرض والجبال .

كان الطفل قد خرج لتوه من الخلية منتصراً ، يحمل بين يديـــه شهده ، وينظر إلى جماعات النحل نظرة إشفاق .

# الشيطان

# الشيطان

أشجار مسحوبة ، تنتهى بفروع متداخلة ومتشابكة كشعر الغجرية ، تضربها الرياح فتتمايل ويصطك بعضها ببعض ، وتصدر همهمة لا تبين كفحيح الأفعى .

وخلال الأشجار ترتفع ألسنة من النيران ، تدور حولها أشباح كالدخان الأسود ، تبدو فى أشكال غريبة ، تنتهى بذنب طويل ، كذنب الشياطين فى أوبرا موزارت .

عرف أنه فى قرية الشياطين ، وتذكر منظراً فى مسرحية " مجنون ليلى" ، وأخذ ينشد من شعر شوقى : —

الرقص يبعث الطـــربْ      هلمّ يا جن العـــربْ
هلم رقصة اللهـــبْ      إذا مشى على الحـــطبْ

---

نحن بنو جهنـــما      نغلى كما تغــلى دمـا
نثور فى الأرض كـــما      ثار أبونا فى الســـما

---

نحن بنو الجبـــار      العـــلم المنـــار

إبليس بكر النـــــــار		يا عز من له انتـــــــــــــمى

---

نحن الرعود القاصــفـــة		نحـــن الريـــاح العاصـــفـــــة
و الكلمات الزاحـــــفة		عـــرمـــرمــــاً عـــرمـــرمــــاً

---

أحس بالهلع الشديد ، وأشفق على قيس وصاح : من ينقذ قيساً من قرية الشياطين .

*		*		*

قال لها : الشيطان لا ينقصه الطموح ولا الذكـــاء ، ولكنـــه مطرود من رحمة الله ، كان فيما يروون ، رئيساً للملائكة ، و لم يقنـــع بكل ما هو فيه ، من نعيم ومال وسلطان ، فتطلع إلى ما عند الغـــير ، ونفث على آدم ما حباه الله من عطاء .

وقال لها : لم يطرده الله بسبب ذكائه وطموحه ، و لم يخرجه من الجنة لأنه استمسك بكرامته ، لقد طرده الله لأن الذكاء والطموح استبدا به ، فأنسياه كل شيء ، لم يتجاوز شهواته ، و لم يصل إلى المقام الـــذى ينظم الذكاء والطموح ، ويجعلهما مما يدوران فى فلك من رعايـــة الله ، لقد استبد به الحسد فأعماه عن كل شيء ، ثم أكله كما تـــأكل النـــار

الحطب ، رحمة الله يقسمها بين خلقه ، ويوزعها بين النـــاس بمقـــدار ، ولكنه تطلع إلى أن يكون كل شيء ، وقال " أنا خير منه خلقتني من نار ، وخلقته من طين" .

* * *

قالت له : ما بال كتابنا يمجدون الشيطان ، ويتخذونه رمـــــزاً للتمرد والتطلع ، توفيق الحكيم يبني له معبداً ، يحرق فيه البخور ، وينشد الطقوس ، والعقاد يترجم له ويقول : —

وبدا الشيطان معروقاً ترى كبرياء الكفر في وقفـــته

عالي الجبهة يأبى القهقرى و توّج النار من نظرتــــه

وأمل دنقل يمجد الشيطان في أول قصيدتـــه " ســـبارتاكوس" ويقول " —

المجد للشيطان معبود الرياح

مـــن قـــال لا ، في وجه من قال نعم

من علم الإنسان تمزيق العدم

وقال لا فلم يمت،وظل روحاً أبدية النغم

قاطعها : ومتى كان أدباؤنا يعبرون عن رؤيتـــهم الخاصـــة أو يعكسون ثقافة أمتهم ، هم دائما مشدودون نحو "الآخر البعيد " يتباهون

بصوره ، ويتناقلونها فى نسخ مكرورة ، هم يعكسون صورة الشيطان فى الأدب الرومانتيكى الغربى ، وهى صورة تتمرد على الآلهة ، وتسرق النار منهم ، ثم تنقلب على الإنسان ، فتحطم فاوست ، وتوقعه فى متاهة العبثية ، قد يكون الشيطان فى هذا الأدب ذكياً طموحاً ، ولكنه مطرود من رحمة الله ، لأنه حاسد ، لا يعترف بالفضل لذويه .

* * *

تحركت مجموعة من السحب ، وحجبت ضوء القمر ، وعم الكون نوع من الظلام غريب ، لا هو كثيف ولا هو خفيف ، ولكنه يحطم الأعصاب ، ويثير البلبلة ، وكما كان يفعل وهو فى قريته صغير ، أمسك بدف وأخذ ينشد ويصيح ، فعسى أن يظهر القمر ، وأن يخرج قيس من قرية الشياطين ، وأن يتخفف أدباؤنا من ظلام التقليد .

# العصفور

# الملون

# العصفور الملون

" هو شيء لا نستطيع أن نحدده تماماً ، وكل ما نستطيعه أن ندور حوله ، وأن نشير إلى بواعثه ، فقد تثيره قصيدة شعر ، أو دفقة ضوء ، أو نغمة من موسيقى ، أو خط من لوحة ، أو حتى وجه طفل صغير وبرئ ، قد تتعدد البواعث ، ولكن الشيء يظل قائماً ، ويتلفع فى كبريائه وغموضه".

ومضى الأستاذ يكتب محاضرته عن العملية الإبداعية ، ولكنه فجأة يرفع رأسه نحو النافذة ، ويرى عصفوراً ملوناً يزقزق فوق غصن رهيف .

ودون أن يدرى امتدت يده تمزق محاضرته ، واستغرق فى لذة سرمدية .

# الوسواس الخناس

# الوسواس الخناس

أقبلت إليه فى حلة أرجوانية ، وهمست فى أذنيه بأغنية ، ثم أغرقته فى قبلة راح بعدها فى سبات ، وكأنه قد التقم قنينة كاملة من خمر قديم .

وجعل ينتظرها كل حين ، كانت لا تخلف وعدها ، تأتيــه فى حلتــها الأرجوانية ، وتهمس فى أذنيه بالأغنية ، ثم تدعه وقد ارتخت أعضاؤه .

قال له معلمه ـــ يستنهضه ـــ وقد رآه يكثر من مطالعة روايات العشــق والخيال : ـــ

ـــ أما آن لك أن تترك كتبك وتذهب معنا لحرب الطاغوت .

أجابه وهو يوليه ظهره : ـــ

ـــ إن الوقت لما يحن بعد ، وقد علمنا ماركس بأن تغيير الواقع قبل تغيير العوامل الاقتصادية ، أمر يشبه اقتطاف الثمرة قبل أوانها .

واستراح إلى ذلك ، وكلما جاءه نداء معلمه يستنهضه ، جعل يدفعــه بالحديث عن ضرورة التاريخ وحركة الجماهير .

وأخذ ينتظرها كل حين ، تهمس إليه بالأغنية ، وتطبع على شفتيه بالقبلة ، ثم تنصرف بعد أن تتركه كالمخدر .

# الفلق

# الفلق

لم تستطع أن تنفذ إليه ، كانت هناك سحب متكاثفة ، وأعمـــدة مـــن دخان .

أنصتت ، سمعت صوته يخترق السحب ، ويتلو { رب إنى أعوذ بك من همزات الشياطين ، وأعوذ بك ربى أن يحضرون } .

عندئذ ولت هاربة ، وهى تصدر أطيطاً كأطيط الجن .

ركب سحابة ، وأخذ يتابعها حتى حاصرها فى ركن ضيق ، ثم أطلـــق سهمه فخرت منكوشة الشعر .ربطها فى سحابته ، وهو يتلو أهـــازيج النصُر .

كان الفلق يغزو الأفق ، وكتائب الظلام تتراجع .

قال لقمان لابنه وهو يعظه : ـــ

ـــ إن شر أنواع الشياطين ، ذلك الذى يسمونه الوســواس الخنـــاس ، يأتيك فيدغدغ حواسك ، ويسكب سمه ، ثم يدعك كالثمل الولهان .

قال الابن لأبيه لقمان يكمل حديثه : ـــ

ـــ وإن خير أنواع الرجال ذلك الذى لا ينتظر الوسواس ، بل يطـلوده ، ولو ركب وراءه السحاب .

عندئذ أدرك لقمان أن ابنه قد نضج ، فكف عن وعظه منذ ذلك اليوم .

# ظاظا

# .. وباظا

# ظاظا .. وباظا

كنا مجموعة من الأصدقاء ، من كبار النقاد ورجال الجامعات ، وقرأت عليهم مقالة لى زعمت أنها من تأليف يحيى حقى .

وتوالت التعقيبات ، واحد يمدح سخرية يحيى حقى ، وثان يشيد بدقة أسلوبه ، وثالث يرى أن هذه المقالة تعود إلى الفترة التى قضاها يحيى حقى فى الصعيد ، ورابع يجزم بأن هذه المقالة قد نشرت فى المساء ، وخامس يضيف بأن طه حسين قد علق على هذه المقالة بأنه عاش ما عاش فى الصعيد فلم يجد من أنصف الصعايدة كما أنصفهم يحيى حقى.

ونشرت هذه المقالة ، وجاء خطاب إلى رئيس التحرير من "الصادق الأمين " يتهمنى فيه بأننى قد سرقت المقالة من يحيى حقى ، وبأنه شخصياً قد قرأ هذه المقالة فى المساء منسوبة إلى يحيى حقى ، وبأن طه حسين قد علق على هذه المقالة بأنها أفضل قطعة تنصف الصعايدة ، ثم أخذ يتحدث عن سخرية يحيى حقى وعن دقة أسلوبه .

قلت لرئيس التحرير : لعلك تذكر أن أحمد رجب قد نشر فى الستينيات قطعة ، أظنها تحت عنوان "الدخان" ونسبها إلى كافكا ، ثم عرضها على النقاد ، قال واحد إنها تعكس خصائص أدب اللامعقول عند كافكا ،

وقال ثان إنها تعكس بنية الحضارة الأوروبية ، وثالث إنها تعبر عن الطبقة اليهودية ، ورابع إنها تصور عقدة الإحساس بالذنب عند كافكا ، وخامس يلوك أعلاماً أجنبية تحدثت عن هذه القطعة .

قال لى رئيس التحرير : —

— هذا فى الستينيات ، ونحن فى السبعينيات ، ألم يحدث تغيير .

قلت له : —

كنا فى الستينيات لا نقرأ لكافكا ، فأصبحنا فى السبعينيات لا نقرأ حتى ليحى حقى .

علق ساخراً : —

— لعل عام ٢٠٠٠ يبشر بالخير .

أجبته ساخراً أيضاً : —

— عام ٢٠٠٠ لن نتحدث عن كافكا ولا عن يحيى حقى ، سوف نتحدث عن ظاظا وباظا ، أتدرى من هما ، هما نجمان على شاشة التليفزيون فى مطالع القرن الجديد .

خرجت وأنا ألتمس نسمة هواء منعشة ، ونمت وأنا أحلم بظاظا وباظا ونجوم عام ٢٠٠٠ .

# قارون

# قارون

مدت إليه أصبعا أرجوانيا كأنه الشفق الزاهـــي ، ثم ســـحبته فاهتاجت نفسه .

و خرج الطفل من الخلية فرحاً بشهده ، ثم انزلقـــت رجلـــه وسال رحيقه .

و خرج قارون في زينته ، و قال الذين يريدون الحياة الدنيا ، يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون ، إنه لذو حظ عظيم .

و قال لقمان لابنه و هو يعظه : ـــ

ـــ حذار يا بنى من البطر ، فإنه يعمي البصر .

قال الابن لأبيه لقمان يستوعظه : ـــ

ـــ و ما البطر .

ـــ البطر لغة الغلو في المرح و الزَّهْو . و شرعا أن يكفر العبـــد بنعمة ربه .

ـــ وكيف يكفر العبد بنعمة ربه .

ـــ قارون كفر بالمال و لم يشكر نعمة ربه ، فساحت به الأرض ، و فرعون كفر بالجاه و لم يشكر نعمة ربه ، ففاض به البحر . ثم انظر حولك .

حينئذ تذكر الابن أن طائفا من الشيطان قد مسه أمس ، بعد أن بشروه بالوزارة ، ثم نظر في عين أبيه لقمان ، و أدرك مراده ، و حمد الله على أن منحه أبا كلقمان ، يصارع الشيطان فيصرعه ، و تحرك لســـانه دون أن يدري يقول الله تعالى { رب إني أعوذ بك من همزات الشياطين ، و أعوذ بك ربي أن يحضرون }

و جاءه صوت من بعيد بأن قد أجيبت دعوتك فقم و تطهر .

# الشيطان

## الأخير

# الشيطان الأخير

صورة ثور يدور في الساقية مئات المرات بلا توقف ، يفحص الأرض برجليه ، و يفتح منخريه على آخرهما ، يدخل فيهما غبار من الأرض و يخرج متصلا ، و كأنه دخان لآلة ميكانيكية تعمل بلا توقف أيضا . و عصا تتسلط على ظهره و لا يعرف صاحبها ، و صوت يصيح " ثور " و لا يعرف مصدره .

تثب هذه الصورة إلى ذهنه ، و هو يسترجع حياته.

ظل طيلة عمره يلهث ، و كأن عصا تلسعه .

رغبة في غلبة الأقران ، و هو طفل في القرية .

رغبة في الظهور ، و هو في صباه .

رغبة فى المرأة ، و هو في شبابه .

رغبة في العلم تطارده منذ أن فك الخط .

كانت الرغبة الأخيرة هى أخطر الرغبات ، استحوذت عليه كخيوط الحرير ، ناعمة ، يستزيد منها ، و كلما استزادها تمد له

خيوطها ، و تلقمه المتعة تسعى اليه ، و هو متكئ عل سريره ، أو راقـد على وسادته .

و كان يؤول كل شئ لصالح هذه الرغبة ، يقرأ حديثا نبويا عن نهمين لا يشبعان ، طالب علم و طالب مال ، و يحكى أن الرسول صلى الله عليه و سلم يستحثه على الإغراق في العلم . و يقرأ في الأيام أن طـه حسين قد اكتشف أن العلم بحر لا ساحل له ، فيقرر في ساعتها أن يلقى بنفسه في هذا البحر .

صرفته هذه الرغبة من كل شئ ، عن اللعب ، عن الشجار مع الأطفال ، عن مغازلة البنات ، عن المشاركة في التحطيب ، عن حفلات المزمار ، أليس هو يقوم برسالة مقدسة ، يطلب فيها العلم ، و يجاهد مع النفس ، و حين كانت تدخل عليه أمه حجرته ، تطلب منه أن يـــدع الكتاب ، و أن يخرج ليلعب مع الأطفال في جرن القرية ، كان ينظـــر إليها باستخفاف ، و يقول لنفسه :. إنها امرأة ريفية ، جاهلة لا تعــرف قيمة ما يصنع .

كانت هذه الرغبة أخطر الرغبات ، تشبه الشيطان الأخـــير في مسرحية إليوت " جريمة قتل فى الكاتدرائية "

إن بطل هذه المسرحية يقاوم كل الشياطين ، و يعرف لغتــها ، يأتيه شيطان المال فيعرفه ، و يأتيه شيطان الجاه فيعرفه ، و يأتيه شــيطان الشباب فيعرفه .

أما هذا الشيطان الأخير فهو أخبث من الجميع ، لقد تسلل اليـه تحت رداء الشهيد ، و لينضم الى ركب الخالدين ، الذين غيروا مســـيرة التاريخ .

و تذكر حديث الرسول صلى الله عليه و سلم ، عن الشـــهيد الذي هو من أهل النار .

**قال الابن لأبيه لقمان ، و هو يستوعظه : ـــ**

ـــ كيف يكون شهيدا ، و كيف يكون من أهل النار

**قال لقمان لابنه و هو يعظه : ـــ**

**ـــ لقد استشهد ليقال إنه شهيد ، و استحوذت عليه شــياطين** الدنيا .

**ـــ و ما هى شياطين الدنيا .**

**ـــ** شياطين الدنيا **أنواع ، شرها إبليس ذلك الذى يلقي إليـــك** زخرف القول غرورا .

و أعاد صاحبنا قراءة الحديث عن النهمين اللذين لا يشبعان ، و انشرح صدره لمعنى جديد ، و وقع في نفسه أن الرسول يخشى الإفـــراط في كل شئ ، حتى في طلب العلم ، فالإفراط انحراف عن الفطرة .

قال الابن لأبيه لقمان يستوعظه : ـــ

ـــ و كيف أستطيع ، يا أبت ، أن أدفع عـــن نفســـى هـــذه الشياطين .

ـــ بأن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل ، فتكن فى صخرة أو فى الســـموات أو فى الأرض ، يأت بها الله ، إن الله لطيف خبير .

يابنى ! العمل عبادة ، وغاية العبادة أن تنال القبول مـــن رب العباد.

يا بنى ! اعمل دون أن تنتظر الجزاء ، تنل منزلة الشهيد المصفى.

ـــ ومن هو ذلك الشهيد المصفى يا أبت !

ـــ هو من صفى قلبه من شياطين الدنيا ، فلا يقاتل من أجـــل مادة ولا جاه ، ولا حتى أحدوثة ، و إنما يقاتل من أجل العقيدة ، ثم تلا عليه قول الله تعالى { الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله . والذين كفـــروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت }

عند ذلك انشرح قلب صاحبنا ، واختفت منه وساوس صـــورة الثور الذى يدور فى الساقية ، واستغرق فى عمله دون أن يتساءل لمـــاذا هو يعمل ، حتى لا يفتح على قلبه باباً لشيطان أشد خبثاً من الآخرين .

# شهيد من أهل النار

# شهيد من أهل النار

عن سهل بن سعد الساعدي ، رضي الله عنه ، أن رسول الله ، صلى الله عليه و سلم ، التقى هو و المشركون ، فاقتتلوا . فلما مال رسول الله ، صلى الله عليه و سلم ، إلى عسكره ، و مال الآخرون إلى عسكرهم ، و في أصحاب رسول الله صلى الله و سلم رجل ، لا يدع لهم جاذة ولا فاذة ، إلا اتبعها يضربها بسيفه ، فقيل : ما أجزأ منا اليوم أحد ، كما أجزأ فلان ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما إنه من أهل النار . فقال رجل من القوم ! أنا صاحبه . قال ! فخرج معه ، كلما وقف وقف معه ، و إذا أسرع أسرع معه . قال : فجرح الرجل جرحا شديدا ، فاستعجل الموت ، فوضع سيفه في الأرض ، و ذبابه بين ثدييه ، ثم تحامل على سيفه ، فقتل نفسه ، فخرج الرجل إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم ، فقال : أشهد أنك رسول الله :

قال : و ما ذاك ؟ قال : الرجل الذي ذكرت آنفا أنه من أهل النار ، فأعظم الناس ذلك ، فقلت : أنا لكم به .، فخرجت في طلبه ، ثم جرح جرحا شديدا ، فاستعجل الموت ، فوضع نصل سيفه في الأرض ،

و ذبابه بين ثدييه ، ثم تحامل عليه فقتل نفسه . فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : " إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة ، فيما يبدو للناس ، و هو من أهل النار . و إن الرجل ليعمل بعمل أهل النار ، فيما يبدو للناس ، و هو من أهل الجنة " .

**فتح الباري من صحيح البخاري**

# الكوابيس

# الكوابيس

الليل شديد الظلمة ، و الرياح تخبط النوافذ ، و امتدت يـده إلى رواية " الغثيان " لسارتر ، و أخذ يقرأ حتى هجم عليه النوم ، و استغرقه هذا الحلم العجيب : ـــ

" باب على شكل مستطيل ، الضلع الطويل رأســـي ، كأنــه مدخل لقلعة قديمة ، غير متصل بحيطان و لا موضوع على منـــزل . و إنما هو هكذا وضع في وسط المكان . فقط يظهر خلفه ـــ و كأنه إطـار لصورة ـــ ممشى ترابي تحيط به الأشجار و الأدغال من الجانبين ، يبـدو أن هذه الأشجار لم تمتد إليها يد بشرية من قبل .

فجأة يظهر أمام الباب رجل و كأنه نبت من الأرض ، شـعره منكوش و عليه غبار السفر ، يصيح و يخبط الباب بيديه و يهز رأســه بعنف جنوني . لا أحد يرد ، يدخل من إحدى " ضلف " الباب مع أنـه مغلق . لأن الضلف مفرغة ليس بها زجاج و لا خشب . ما إن يخطـو خطوات حتى تطلع عليه من الشجر ريشة رمح ، فيقع ميتا لا حراك به ، و لكن لا دماء و لا ثقب و لا أثر للرمية .

يظهر ثان و ثالث و رابع فيتساقطون كل واحد أمام الآخر حتى يسدون الممشى .

ثم يظهر شخص لا يبدو على وجهه أي تعبير ، لا يصيح و لا ينادي و لا يقف أمام الباب ،و إنما يندفع و لكن ليس في الممشى الترابي و إنما من خلال الأدغال ، و يظل يسير مسرعا لا يلتفت يمنة و لا يسرة ، ثم يظهر على وجهه حماسة تزيد كلما تقدم ، و يظل يسير حتى يصل إلى نهاية الأشجار، و هناك يواجه بالباب نفسه كأنه باب لقلعة قديمة و لكنه غير متصل بشئ ، و ليس وراءه معالم ماعدا الممشى الترابي و الأشجار من حوله . فيرتد و لكن من خلال الممشى الترابي ، وفي خطوات بطيئة هذه المرة ، و قد اختفى من وجهه انفعال الحماسة . فيجد الأجساد المتساقطة قد اختفت ، و حل محلها نوع من الطيور ، بيضاء و ذات بقع رمادية ، و فمها واسع و مفتوح ، و في عيونها شراهة ، و تتكاثر بسرعة عجيبة و هي تخرج من نقرة في الممشى ، فترتفع لا بسبب الطيران و إنما بسبب دفعة قوية من داخل النقرة ، و عند ارتفاع محدد تقع مقلوبة على الجانبين مكان الأشجار ، التي تكون قد اختفت بدورها و خلفت مكانها أرضا سوداء زراعية . و ما إن تصل الطيور المقلوبة إلى الأرض الزراعية حتى تختفي واحدة وراء الأخرى في نقرة

أخرى ، ثم تظهر من جديد واحدة وراء الأخرى من النقـــرة الــتى في الممشى معتدلة ، لترتفع ، ثم تسقط عند الحد المعين في الأرض الزراعيـــة مقلوبة ، لتظهر من جديد فى الممشى ، لتسقط في النقرة ، لتظهر مـــن النقرة ، لتسقط في النقرة ، لتظهر ، لتسقط ، لتظهر ، لتسقط ، لتظهر ، لتسقط ، لتظهر ، لتسقط .....

يسير الرجل حتى يصل الى النقرة التى تندفع منها الطيور معتدلـة ، لتسقط عند ارتفاع معين على الأرض الزراعية مقلوبـــة . و هنـــاك بالتحديد يفقد الإحساس بنفسة تماما ، و يصير واحدة من تلك الطيـــور المتدافعة الشرهة ، و تجرفه الدوامة الدائرية ، و الباب مازال في مكانه و في الوضع نفسه و إن كانت الصورة التي وراءه هى التي تغيرت فقط .

استيقظ من نومه مذعورا ، و عزم على ألا يقرأ بعد اليوم شـيئا لسارتر ، و ألا يأكل قبل النوم أكلة دسمة . فالكوابيس المزعجة قد تـأتي نتيجة انحراف فى الصحة ، أو نتيجة انحـــراف في المـــزاج ، و كلاهمـــا اختلال يحرمانه من النوم المريح ، و أدرك صحة ما قاله البعض مـــن أن سارتر كتب روايته " الغثيان " تحت سيطرة عقار الهلوسة .

# العجل النطاح

# العجل النطاح

لم يتبين وسط العاصفة الهوجاء ، سوى صوت غريب يصيـــح "كالكلب" ثم تلاشى هذا الصوت غامضا كما بدأ غامضا ، و البيــت الكبير يهتز ، و النوافذ تصطفق ، و الرياح تخبط .

كان هذا هو كل ما تبقى في وجدانه من نهاية رواية " القضية " لكافكا ، و لايتذكر التفضيلات فقد هاجمه نوم ثقيل ، و عاوده الحلـــم العجيب ، و لكن في صورة أخرى : ـــ

" مياة رصاصية كثيفة كالزئبق . لا حركة بهـــا ، و لا طيـــور فوقها ، و لا نبات حولها ، أشعة من الشمس حارقة فوق مركز الدائـــرة من تلك المياه ، و قريبة جدا منها ، تثور بين الحين و الحـــين فقاعـــات صغيرة بسبب أشعة الشمس ، كتلك التي تشاهد على سطح كوب مـــن الماء .

لا حد للمياه شمالا و لا جنوبا ، أما في الشرق و الغرب فساحل رملي يأخذ لون المياه و كأنه امتداد لها ، و يغلي أشبه بأفران الصـــهد في معامل السكر .

تظهر على الشاطئ الشرقي امرأة ، سواد في سواد من رأسـها إلى قدميها ، لا يظهر من خلال السواد إلا وجه لا تعبير به ، في وسـط العمر و لكن وجهها وجه عجوز ، عيناها ترابيتان ، و شـكلها ليـس آدميا تماما بل هو أشبه بالرسوم التي تراها على الكهوف القديمة ، تبدأ في السير من أول الشاطئ و متجهة ببطء نحو المياه و فوق أفران الصهد . و عليها جرة موضوعة رأسيا و ذات رقبة كبيرة و عليها حبيبات من كثرة استعمالها و مقبضها خشن و مسود . تسير المرأة في خـط مسـتقيم لا تلتفت يمنة و لا يسرة ، و لاتغير من حركتها و لا من إيقاعها في الخطـو ، لا يظهر خلفها ظل ، ثم تقف فجأة حين تصك المياه قدميها ، فتنحـني و قد وضعت الجرة على المياه التي تختفي ببطء و كأنها تغوص في رمـال متحركة ، و لا يبدو على المياه تغيير إلا حركة زئبقية في المنطقـة الـتي فوق فوهة الجرة . ثم تختفي لتعود المياه إلى ما كانت عليه رصاصية طويلة تثير الدوخة ، تسحب الجرة ثم فجأة و بحركة " هيسترية " ترفع وجهـها و تنظر الى الشاطئ الآخر ، فتجفل و هى تشاهد على الشاطئ الغـربي امرأة أخرى ، مثلها تماما سواد في سواد ، وجهها خال مـن المعـنى ، عيناها ترابيتان ، تحمل جرة أيضا ، و تتحرك مثل المرأة الشرقية

و كأنها انعكاس لها ، ثم تصرخ المرأة الشرقية و تطوح في الهواء بيديـــها كمن يندب . و يملأ صوتها كل المكان ، لا يبدو أنه يصدر من امــــرأة واحدة ، و إنما من مجموعة في قوته و هو يردد .

أمي تضربني         و العجل ينطحني         و أبوي يأكل لحمي

و لكن هذا الصوت الذي يملأ المكان كله و كأنه يصدر مــــن مجموعة ، يصل إلى المرأة الغربية فيحركها حركة خفيفة ، و ترفع رأسها ببلادة ، و ما إن تشاهد المرأة الشرقية حتى تجفل و تمتلئ رعبا و تطـــوح في الهواء كمن يندب و يصدر منها صوت مثل الصوت الأول يأتي مـــن جميع الجوانب و هو يردد :

كليبه شاميه         تنبح صبح وعشيه         سرقوا بيتي الحراميه

يختلط الصوتان و يزداد رنينهما و تتحول المنطقـــة كلـــها إلى عاصفة من الندب و الصياح ، و تثور فوق الساحل عواصـــف تلطـــم الرمال بقوة و تختلط بها و تدفعها إلى مسافات متداخلة . أما المياه فمـــا زالت كما هى كثيفة لا تهتز و لا تتحرك ، و الشمس كما هى لا تميـــل إلى الشرق و لا إلى الغرب و كأنها معلقة فوق هذه المنطقة بالذات .

تعود المرأة الشرقية و قد أعطت ظهرها للمياه و تفعل مثلـــــها المرأة الغربية تماما ، في الحركة نفسها و الخطوة نفسها ، و لكن بــــدل الجرة نجد على رأس كل منهما طفلا منتفخ الرقبة و كأنه مصاب بالغدة الدرقية ، لا تبدو عليه براءة الأطفال ، بل يظهر أنه متلذذ بهذا الوضـــع فوق رأس أمه ، وجهه مجدور كقدم فلاح مملوء بالثقوب ، و أنفه كإبهام القدم .

تصل المرأة الشرقية إلى نهاية الشاطئ ، و كذلك المرأة الغربيـــة ، و في اللحظة نفسها تماما ، و يسوخ قدم كل منهما في الرمال و يختفـــي جسداهما بالتدريج تحت الرمال المصهدة ، و لا يبقى فوق الســـطح الا الطفلان ، و دون أن ينظر كل منهما إلى الآخر يتجهان نحو المياه ، الــتي تظل كما هي رصاصية و كثيفة ، و فوقها الشمس في مكانها لا تتجـــه إلى الشرق و لا إلى الغرب ، و يبدو لصغر خطوهما أن المسافة أمامـــهما قد أصبحت أكثر طولا من ذى قبل .

استيقظ من حلمه ، و عزم على ألا يقرأ لكتاب العبث أبـــدا ، بالأمس قرأ لسارتر فوجد نفسه كالبصلة المقلوبة ، و اليوم قرأ لكافكـــا فوجد نفسه كالطفل المجدور . أزاح الغطاء ، و طرد الكوابيس المزعجـة و قرأ سورة الملك ، و تطلع نحو السماء فما رأى فيها من تفـــاوت و لا

فطور ، و ارتد إليه طرفه خاسئا و هو حسير ، و أحس بالضعف الإنساني ، و أيقن أن الحل ليس عند سارتر و لا كافكا ، فقد كفاه ماعانى من كوابيس .

# سليمان

# و

# الهدهد

# سليمان و الهدهد

" تفقد سليمان الطير ، فلم يجد الهدهد . ظنه غائبا ، ثــــارت كبرياؤه ، و أقسم ليعذبنه عذاباً شديدا . و بعد قليل ، أقبل الهدهد يــهز عرفه ، و وقف أمام سليمان في ثقة ، و قال : ـــ

ـــ هل أقسمت أن تعذبني عذابا شديدا .

ـــ نعم .

ـــ هل ستنتق ريشى ؟

ـــ أشد من ذلك .

ـــ هل ستذبحني ؟

ـــ أشد من ذلك .

ـــ و ما هذا الذي هو أشد من الذبح ؟

ـــ سأضعك بين قوم ، لا يعرفون قدرك "

و مضى لقمان يتلو على ابنه ما تيسر من قصص الحيــوان ، و الابن شارد بذهنه بعيدا ، و كأنه في أرض بلقيس ، و أخيرا رفع الابــن رأسه في ثقة ، كما الهدهد أمام سليمان ، و قال لأبيه : ـــ

ـــ أحطت بما لم تحط به .

ـــ ... ... ... .... .... .... .... ...

ـــ و جئتك بسلطان مبين .

ـــ .... .... .... .... .... ...

ـــ و وجدت الخلاص للهدهد من سجن سليمان .

ـــ .... ..... ..... ...... ....

ـــ أو لا يملك الهدهد جناحين ؟

ـــ نعم ، يملك .

ـــ أما يستطيع بهما الفرار ؟

ـــ نعم ، يستطيع .

ـــ ليته قرأ قول الله تعالى في سورة النساء : ـــ

**{ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ، قالوا فيم كنتم ،** قالوا كنا مستضعفين في الأرض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ، فأولئك مأواهم جهنم و ساءت مصيرا } .

و تفهم لقمان إشارة ابنه ، و أدرك أن الأمر ليس هو أمر الهدهد أو سليمان ، و لكنه أمر كل مظلوم مقهور ، و اطمأن على

ذكاء ابنه الذي يقرأ ما بين السطور ، ثم اندس في كتبه يكمل ما تيسر من قصص الحيوان : ـــ

" ..... و ركل العبر قيده ، و شج وتده ، و مضى طليقا نحو الغابة ، و أنبت الله له جناحين من فضة ، و صار كالبرق يحلق في سماء القرية إلى يوم القيامة " .

# قابيل

# قابيل

و فجأة انطلق صوت مزق السكون ، و خرت يمامة نحو الأرض ، و سالت الدماء ، و خرج من الأدغال رجل عار إلا من شراشيب ، أسرع نحو اليمامة ، فصل رأسها ، ثم اختفى في الظلام .

و رأيت فيما يرى النائم كأنني في امتحان ، أمسكت بالقلم فوجدته مكسورا ، نظرت إلى الورقة فوجدتها مهترئة ، أسرعت نحو الباب وجدته موصدا ، شاهدت أخي يقهقه شامتا ، وجهت إليه بعض السهام ، تكسرت على كرشه .

استيقظت ، و كان الظلام كثيفا ، و الكون كالجثة الهامدة ، لا نفس و لا نائمة ، و زعق صوت أشد نكرا من صوت الغراب ، و صاح : لأقتلنك .

وهوت صاعقة ، فابتلعت كل شيء ، و صار الأخضر يابسا .

# وهابیل

## و هابيل

تسلل شعاع صغير في الأفق الشرقي ، أخذ ينتشـــر في ثقـــة و إلحاح ، تراجعت فلول الظلام ، و تحركت الحياة في جسد الليل ، تنفس الصبح ، و كشفت الكائنات عن نفسها ، هذه قمة جبل ، و هذا جذع شجرة ، و هذه غزالة ترضع وليدها ، و هذا جرو كلب يثب ، و هـــذا راع ينشد على نايه ، و هذا مصل يرفع يده نحو السماء .

تعانقت سحابتان في السماء ، و تحولتا إلى ملكين ، أجنحتـــهما زاهية ، تنعكس على حوافها أشعة الشمس ، فيشع منها نور يملأ المكـــان ، أخذ الملكان ينشدان و الكائنات تردد خلفهما : —

المجد للإنسان في الأعالي .
من تسجد له الملائكة .
من يعطى للأشياء مسمياتها .
من يزرع الأرض .
و يحصد القمح .
من قال للشيطان : لا .

*        *        *

قال لقمان لابنه و هو يعظه : —

يا بني ، في الدنيا قابيل ، و فيها أيضا هابيل ، و لكن الله يتقبل من المتقين .

يا بني ، قد يعلو صوت قابيل ، و لكنه في النهاية أقل حيلة من غراب يوارى سوأة أخيه .

يا بني ، اخترق الظلام تجد في أحشائه النور ، يهلل لأول طارق جسور .

يا بني ، حين يتسلل النور تهلل الملائكة لهذا الطارق الجسور ، و تنشد له .

**المجد للإنسان في الأعالي**

**من يغوص في البحار**

**و يعتلي صهوة الجبال**

**من يمتشق السهام**

**و يطارد الشيطان**

و تعانق الملكان ، و خرجت من أجنحتهما فراشات بيضاء ، انتشرت في الأفق الشرقي تردد هذا الغناء .

# الأول والثاني

## الأول و الثاني

قال الأول : —

— انظر .. نصف الكوب ملآن .

قال الثاني : —

— و لكن النصف الآخر فارغ .

قال الأول : —

— ما أجمل القمر .

قال الثاني : —

— إنه مليء بالحفر .

قال الأول : —

— ما أجمل قوس قزح .

قال الثاني : —

— إنه يصطبغ حمرة و نيرانا .

و ظل الأول يقول ، و ظل الثاني يعترض ، حتى تعاركا .

*          *          *

قال الابن لأبيه لقمان يتوعظه : ـــ

ـــ يا أبت ! أيهما على حق ، الأول أو الثاني .

قال لقمان لابنه يعظه : ـــ

ـــ يا بني ! دقق النظر في وجه الأول ، و أعد الكرة في وجـــه الثاني ، يأتك الجواب .

يا بني ! دقق النظر ، ترى الجمال و الراحة في وجـــه الأول ، و أعد الكرة في وجه الثاني ترى الخراب و البوم و الغربان .

يا بني ! كل امرىء يجازي حسب نيته .

يا بني ! كن جميلا ترى الوجود جميلا ، و كن قبيحـــا تـــرى الوجود قبيحا .

* * *

و أقبلت سحابة مبتلة ، تسللت منها قطرة ماء .

فتح الأول صدره ، و استقبل قطرة الماء فكانت بردا و سلاماً .

أما الثاني فقد فر يعدو نحو داره ، و أغلق عليه بابه ، خشـــية أن يداهمه السيل .

# مقام الامتلاء

# مقام الامتلاء

تناهى إليه صوت الشيخ رفعت ، و هو يتلو من سورة الضحى
{ ألم يجدك يتيما فآوى . و وجدك ضالا فهدى . و وجدك عائلا فأغنى} .

أحس بعدها بأنه أقوى من كل شئ ، و لم يعد يبالي بما يلاقي ، فكل محنة لا شك تعقبها نعمة .

كان بالأمس يقرأ في أدب العبث ، و كان يحس بأنه يتلاشى و المستقبل أمامه يضيع ، فهذا كاتب يرى أمامه امرأة حاملا تتمشى مع زوجها فوق ضفاف نهر ، فيدفعها بقوة هي و حملها نحو النهر . و هذا آخر ، أظنه صمويل بيكيت ، يلقي بطفل صغير تحت عجلات القطار .

و الأغرب أن هذا الكاتب أو ذاك ينجز مهمته و هو سعيد ، و قصته أو مسرحيته تحتفي بهذه السعادة من خلال مظاهر كثيرة ، و كأنه قد أدى رسالة لا تقل عن رسالة الأنبياء و المصلحين .

أما اليوم و هو يسمع سورة الضحى ، فهو يحس بأن المستقبل يتراءى له خلف كل محنة ، و لم يعد يهمه يتم و لا حيرة و لا فقر ، فكل شئ لا يدوم ، فقط علينا أن ننتظر .

* * *

قال لها : إن أدباء العبث يصدرون عن أعصاب ضعيفة ، فقد اندمجوا في المحنة ، و لم يعبروها إلى ما وراءها . ظروف الحرب و التشريد و التعذيب استغرقتهم ، و لم يملكوا من الطاقة ما يجعلهم يبصرون الفجر و هو يلوح من بعيد .

قالت له : أراك تتحدث عن مقام الصبر عند المحنة .

نظر خارج النافذة ، و أبصر وردة وحيدة في الحديقة ، و تذكر قصته " الزحلف الأسود " التي قرأها و هو طفل صغير ، ثم قال لها : —

— و لكن مقام الصبر وحده لا يكفي ، هو نصف الحقيقة ، و تلا عليها بقية السورة { **فأما اليتيم فلا تقهر و أما السائل فلا تنهر و أما** بنعمة ربك فحدث } .

و أحس بالامتلاء ووود لو يخرج إلى الشارع ويحتضن كل إنسان ، وصرخ الزحلف الأبيض وهو يغرق ، وتقدم إليه الزحلف

الأسود وأعاده سالماً ، وهلل الجميع للزحلف الشجاع ، و لم يشعر بعدها بأنه منبوذ من بقية الزحالف .

قالت لها : ـــ فهمتك ، أراك تتحدث أيضاً عن مقام الشكر عند النعمة ، فأول السورة يتحدث عن الصبر عند المحنة ، وآخرها عن الشكر عند النعمة .

قال : لها نعم ، ذلك هو مقام الكمال الذى يتكامل فيه الصبر والشكر ، كما يتكامل الضحى والليل ، والأبيض والأسود ، والذكر والأنثى .

كان هناك طائر يضرب أجواز السماء بجناحين قويين ، وهو يخترق تشكيلات السحب المتعددة الألوان .

# حبات المطر

# حبات المطر

كانت الكائنات في البدء مجموعة أخلاط ثم تشكلت ، و كانت السماء دخانا ثم استوت ، و كانت الأشياء بلا أسماء ثم تحددت .

كان الكل بلا هوية ، ثم أخذ يبحث عن هوية .

و يوم أن اكتشف هويته ، اكتشف وجوده .

نظر الى السماء ، كان الإنسان ، جماعات متنـــــاثرة كقطيـــع الأغنام فوق الأعشاب ، و يوم أن تجمع و تماسك ، تميز عن الأغنام ، و أصبح سيد الكائنات ، و رمقته الملائكة بحسد و تطلع ، و قال الله لها { إني أعلم ما لا تعلمون } .

أخذت السحب تتجمع و تتلاقي ، و تشـــــكل تكوينـــات و زخارف كأنها ثياب العيد .

و قال لها : ـــ

ـــ كذلك تتشكل الحضارات ، في البدء كـــــانت المجتمعـــات البشرية مجرد تكتلات ضبابية بلا معنى ، و يوم أن اكتشـــفت هويتـــها عرفت حضارتها ، و أصبح طريقها ممهدا .

ما الحضارة إلا معنى ، و دون هذا المعنى يعود المجتمع إلى البدء ، كقطيع من الأغنام ، أو كنتف القطن البيضاء .

فجأة ظهرت سحابة سوداء ، كقطعة حبر كبيرة تلطخ رقعة السماء .

قالت له : —

— دع عنك تشكيلات السماء ، و تكتلات السحب الزرقاء و البيضاء ، و انظر حولك ، ألا تجد الناس أخلاطا لا يتميزون ، و كتلا تتراكض كأشباح المساء .

قال لها : —

— و لكن الأرض تندى برائحة مطر تأتي من بعيد ، ألا تشمين.

قالت له : —

— هل أصبحت نبيا تبشر و تنذر .

قال لها : —

فقدنا أنفسنا يوم أن فقدنا حاسة الأنبياء ، و تركنا النظر نحو السماء .

تركته بلا وداع ، و لكن حبات تائهة من مطر المساء رطبـــت الغصة في حلقه المكلوم .

# الجبل الذي

# تكلم

منظران متباعدان ، أحدهما من الشرق و الآخر من الغــوب ، و لكنهما فجأة و في وقت واحد يلمعان داخلي ، و كأن ضوءا باهرا قــد سلط عليهما ، فأعاد اكتشافهما في التو و اللحظة .

قال لنفسه : ــ

ــ سبحان الله الذي يجمع بين النقيضين في وقت واحد ، يخرج الحي من الميت ، و يخرج الميت من الحي ، و يولج الليل في النــــهار ، و يولج النهار في الليل .

و تذكر ما قرأه في الكتب القديمة عن هذا الملك ، الذي نصفــه من ثلج و نصفه من نار ، لا الثلج يطفىء النار ، و لا النار تذيب الثلج.

المنظر الأول فوق جبال ويلز ، كان قد جاء هو و زوجـــــه في رحلة من بلاد الشرق .

الفتيان و الفتيات يلعبون و يرقصون ، و يتسلقون الجبال و يتسابقون ، و كأنها اللحظة الأخيرة في حياتهم ، يمصونها بنهم قبل أن تفلت من أيديهم .

ثم انصرفوا بعد أن تركوا مخلفاتهم ، متناثرة هنا و هناك ، لم يلتفتوا إلى شيء ، و لم يتوقفوا عند شيء .

أما هو و زوجه فقد وقفا متأملين ، كما كان الشاعر القديم يقف فوق الأطلال .

المنظر الآخر في جبال مكة ، كل جزء في الجبال ينطق و يتكلم و يقول شيئا ، هذا جبل النور ، و هذا جبل الرحمة ، و هذا غار حراء ، و هذا غار ثور ، و هذا جبل الصفا ، و هذا جبل المروة . و هنا نزلت الملائكة ، و هنا جاء الوحي ، و هنا كانت خطبة الوداع ، و هنا هرولت هاجر ، و هنا ارتوى إسماعيل ، و هنا وقف إبراهيم .

و تغير وجه الجبال أمامه ، لم تعد كالحة متجهمة ، و لم تعد كتلا حجرية سوداء لا تنبت شيئا ، إنها تتشقق و تتصدع ، و تنطق و تتكلم ، و تذكر الآية الكريمة { و إن منها لما يهبط من خشية الله } .

قال له محدثه و كان من بلاد الشمال و الثلوج : —

ـــ ألم أقل لك إن الشرق شرق و الغرب غرب ، و إنهمـــــا لا يلتقيان .

كانت في صوته نبرة فخر لا يستطيع كتمانها ، و لكنني أجبتـــه في صوت عميق كأنه يأتي من جوف التاريخ : ـــ

ـــ قد يلتقيان على أرض الوسطية ، كما يلتقي البحران هـــذا عذب فرات سائغ شرابه ، و هذا ملح أجاج .

و أعدت على مسمعه قصة الملك ، الذي نصفه من ثلج و نصفه من ماء .

قال ساخرا : ـــ

ـــ إنك تهوم بعيدا ، كما كان شاعركم القديم يـــهوم في واد عبقر ، أما نحن فنبني الصواريخ و ناطحات السحاب .

قلت هادئا : ـــ

ـــ ابن ما شئت ، و ارتفع في صاروخك ما شئت ، إنـــك في النهاية محبوس في غرفتك داخل صاروخ ، أو في حجرتك داخل ناطحة سحاب ، مهما ارتفعت و بنيت لا تزال تنظر تحت قدميك ، و يتـــوه عنك ذلك الشعاع الخفي الذي يأتي من السماء ، انظر اليه ألا تراه إنـه يرمقني من بعيد ، و يحادثني بلغة لا تستطيع لها صبرا.

اتركني و انصرف دون وداع .

أما أنا فقد لمحت برقا يمانيا يأتي من الشرق ، أرى على ضوئه الحجيج يطوفون حول الكعبة بلا انقطاع ، منهم من يتحول إلى أثير يصاعد نحو السماء ، و ينضم إلى هذا الصف الطويل من الملائكة الممتد فوق الكعبة ، و منهم من ينتظر .

عند هذا الحد أحسست بقدر كبير من الامتلاء ، و خيل لي أنني أستطيع أن أضم الشرق و الغرب معاً في قبضة واحدة .

# الشـــمس

## تشرق

# من جديد

# الشمس تشرق من جديد

غطست الشمس في قاع المحيط ، فخيم على الكون هلع شـديد ، استدار بلا إرادة نحو الناحية الأخرى ، فأبصر هلالا صغيرا يبتســم في شحوب .

قالت له : ـــ

ـــ إني خائفة ، لا أبصر إلا الأشباح .

كانت يداها باردتين برود الموت ، و قلبها يدق بسرعة .

لوى عنقها نحو الناحية الأخرى .

قالت : لا أبصر إلا نقطة بيضاء ، تتوه في غياهب السماء .

قال : عما قليل ينقشع الظلام ، و يعم الضياء .

قالت له : هل عدت من جديد تبشر بالأشياء ، و الأشباح تملأ كل مكان .

قال لها : إنني أسمع همهمة تأتي من بعيد .

كانت هناك أصوات كثيرة تتداخل و تتعالى و تملأ كل مكـــان ،و تسرع نحو هاتف لا تراه .

قال لها : انظري إلى المآذن هل ترين شيئا .

قالت : إني خائفة أرتعد .

قال : دققي النظر ، هناك أرواح تحوم حول المآذن ، تســـتقبل الهلال الوليد .

قالت : لا أفهم .

قال : التاريخ لا يضيع ، ها هى أرواح الأجداد قد أتت تستقبل الهلال الوليد . اليوم تغطس الشمس ، و غدا تولد من جديد . تعربـــد الأشباح ، و لكن الشهب تترصدها في كل مكان .

أمسك بيدها فأحس بالحرارة تدب من جديد .

قال لها : تشجعي ، سوف يظهر الهاتف ، و سوف يراه النـــاس ، و سوف يعود التاريخ من جديد .

قالت له : زدني

قال : سوف أزيدك بضع آيات من سورة ياسين : ـــ

{ قال من يحيي العظام و هى رميم . قل يحييها الذي أنشـــأها أول مرة ، و هو بكل خلق عليم }

انتصبت واقفة ، و بحركة لا إرادية كغزال يتملص من صائده ، التفتت إلى الناحية الأخرى ، فوجدت الشمس تشرق من جديد .

# الفهرست

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

# من مؤلفات

# الأستاذ الدكتور عبد الحميد إبراهيم

ـــ **قصص الحب العربية** ( الطبعة الأولى سنة ١٩٦٦ م ـــ الطبعة الثانية سنة ١٩٨٨ ) .

ـــ **من قصص العرب** : ( الطبعة الأولى سنة ١٩٦٧ م ) .

ـــ **قصص العشاق النثرية** : دراسة فى التراث القصصى ( الطبعة الأولى سنة ١٩٧٢ ـــ الطبعة الثانية سنة ١٩٨٨ م ) .

ـــ **القصة المصرية و صورة المجتمع الحديث** ( الطبعة الأولى سنة ١٩٧٣ ) .

ـــ **الأدب وتجربة العبث** : ( الطبعة الأولى سنة ١٩٧٣ ) .

ـــ **القصة اليمنية المعاصرة** ( الطبعة الأولى سنة ١٩٧٧ م ـــ الطبعة الثانية سنة ١٩٨٦ ) .

ـــ **ألوان من القصة اليمنية المعاصرة** ( الطبعة الأولى ســـنة ١٩٨١ ـــ الطبعة الثانية سنة ١٩٨٨ م ) .

ـــ **الوسطية العربية** ( ٩ أجزاء )

- الكتاب الأول : المذهب ( الطبعة الأولى سنة ١٩٧٩ ـــ الطبعة الثالثة ١٩٩٠ م ) .

- الكتاب الثانى : التطبيق ( الطبعة الأولى سنة ١٩٧٩ ـــ الطبعة الثانيــة ١٩٨٦م ) .

- الكتاب الثالث : نحو وسطية معاصرة ( الطبعة الأولى سنة ١٩٩١ ) .

- الكتاب الرابع : نحو رواية عربية ( الطبعة الأولى سنة ١٩٩٥ ) .

- الكتاب الخامس : حلم ليلة القدر ( الطبعة الأولى سنة ١٩٩٥ ) .

- الكتاب السادس : القرآن الكريم والمذهب الوسطى ( تحت الطبــع ) .

-الكتاب السابع : مسرح الحكيم بين الوسطية و التعادليـــة ( تحـــت الطبع ) .

- الكتاب الثامن : ثلاثية نجيب محفوظ بين التوفيقية والوسطية.

- الكتاب التاسع : على هامش الوسطية العربية ( تحت الطبع ) .

ـــ **المسرح المصرى بين ثلاثة أجيال** ( الطبعة الأولى سنة ١٩٨٢ ).

ـــ **القصة القصيرة فى الستينيات** ( الطبعة الأولى سنة ١٩٨٢ ـــ الطبعة الثانية سنة ١٩٨٨م ) .

ـــ **القصة القصيرة فى السبعينيات** ( الطبعـــة الأولى ســـنة ١٩٨٤ ـــ الطبعة الثانية سنة ١٩٨٧م ) .

ـــ **لقطات : ألان روب جرييه** ( ترجمـــة ) ( الطبعـــة الأولى ســـنة ١٩٨٥م) .

ـــ **الرعشة الأولى وهؤلاء الأدباء** ( الطبعـــة الأولى ســـنة ١٩٨٦ ـــ الطبعة الثالثة سنة ١٩٩٤م ) .

ـــ **مقالات فى النقد الأدبى** : ( ١٥ جـــزء ) ( الجـــزء الأول ســـنة ١٩٨٨م ) .

- الجزء الخامس عشر ( تحت الطبع ) .

ـــ **قاموس الألوان عند العرب** ( الطبعة الأولى سنة ١٩٨٩ ـــ الطبعـــة الثانية سنة ١٩٩٨ م ) .

ـــ **نقاد الحداثة وموت القارئ** ( الطبعة الأولى سنة ١٩٩٥ م ) .

ـــ **الرواية العربية والبحث عن شكل** ( الطبعة الأولى سـنة ١٩٩٦م ـــ الطبعة الثانية سنة ١٩٩٨ م ) .

ـــ **حوار مع الدكتور عبد الحميد إبراهيم** :

- الجزء الأول سنة ١٩٩٦ م .

- الجزء الثانى سنة ١٩٩٦ م .

- الجزء الثالث ( تحت الطبع ) .

ــ **الأدب المقارن من منظور الأدب العربى** ( الطبعة الأولى سنة ١٩٩٦ م ــ الطبعة الثانية سنة ١٩٩٧ م ).

ــ **شواهد ومشاهد** ( الطبعة الأولى سنة ١٩٩٦ م) .

ــ **الرواية العربية والبحث عن جذور** ( الطبعة الأولى سنة ١٩٨٩م) .

ــ **نوادر الحب والحكمة** : سلسلة من تراثنا القصصى العـــدد الأول : (الطبعة الأولى سنة ١٩٩٨م ) .

ــ **القصة القصيرة والبحث عن شكل** ( تحت الطبع ) .

ــ **البيت الكبير وقصص أخرى** ( الطبعة الأولى ١٩٩٨ م) .

ــ **التراث القصصى عند العرب** ( تحت الطبع ) .

ــ **قال لقمان لابنه** : الجزء الأول ( تحت الطبع ) .

ــ **العرب وعلوم الجمال** ( تحت الطبع ) .

ــ **نجيب محفوظ والفن الروائى** ( تحت الطبع ) .

ــ **القصة القصيرة وظاهرة العبث** : نماذج من الأدب العالمى ( ترجمة ) ( تحت الطبع ) .

– **على هامش القصة اليمنية المعاصرة** ( تحت الطبع ) .

– **أوراق طه حسين** : الجزء الأول ( تحت الطبع ) .

مطبعة الموسكى
ت :٣٢٠٣٤٠١ ـــ ٣٢٠٧٧٦٠